تأملات في
سيرة النبي أيوب (ع)

تأملات في سيرة النبي أيوب (ع)

المصلحة الدينيّة والتربويّة في المجلس المذهبي لطائفة الموحدين الدروز

الطبعة الاولى

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

الرسوم: **شادي خدّاج**

الإخراج الفنّي: **صفاء الفطايري**

تمهيد

«يا صبر أيوب» ... هي عبارة تقال عند كلِّ شدَّةٍ وصعوبة، وعند كلِّ بلاءٍ صغيراً كان أم كبيراً. هو دعاء استجلاب القوّة على الصّبر، كما صَبَرَ نبيّ الله أيوب عليه السلام في بلائه الذي لم يكن محصوراً في أمر معيّن من أموره، بل كان بلاءً شاملاً في كلّ العناوين: في جسده، وماله، وجاهه، وأملاكه، وأصدقائه، وأهله، وناسه، وتدبُّر معيشته أثناءَ مرضه، وغيرها من الامور. كان بلاءً عظيماً ما سُمع بمثله، وقد احْتَمَلَهُ عليهِ السّلام بقوة إيمانه ومعونة ربه فاستحقّ بكلّ جدارة أن يكون مثالاً أعلى، وقدوةً صالحةً في عنوان الصبر.

ليس المقصود في هذا الكتيّب سرد سيرة هذا النبيّ الكريم، وإنما التأمّل في بعض مناقبه وآدابه وأخلاقه وحكمته لنتعلّم كيف ننظر إلى البلاء، ونتعامل معه بواقعيّة، وبصحة من عقلٍ وعقيدة، ولكي ندرك ما هو الباعث على الصبر والثبات عليه، وما هو الباعث على الضّجر والتألّم، والدّخول في حال اليأس والقنوط.

بسم الله الرحمن الرحيم

قبل البلاء:

كان أيوب (ع) من الأنبياء الذين ذكرهم القرآن وذكر نبوَّتَهم بقوله: ﴿وأوْحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق والاسباط وعيسى وأيوب...﴾ (النساء/ ١٦٣). وكان تقيّاً ورعاً، رحيماً بالمساكين، مكرِّماً للضيف، يُؤوي الأيتام، وينصر المظلوم، ويدعو قومه إلى عبادة الله الواحد الأحد كسائر الأنبياء، الذين أضاءت أنوارُ بركاتِهم سماءَ القلوب فأحْيتها وأغنتها. وقد رزقه الله سبحانه من خيره وكرمه المال الكثير، والأنعام، والعبيد، والمواشي، والأراضي المتّسعة، من بلاد حوران، حيث عاش فيها، وكان له أولاد وأهلون، وزوجة صالحة، عاش معها في سعادة واطمئنان. ومما جرى على لسانه في التوراة يَصِفُ حالتَه، ذاكراً نِعَم الله تعالى عليه قبل ابتلائه:

"إذا شَهِدَتْني العين تثني عليّ، لأني أنقذتُ البائسَ المستغيث، وأجَرْتُ اليتيم، طالبَ العَوْن، فحلّت عليّ بركةُ المشرفِ على الموت، وجعلْتُ قلبَ الأرملة يتهلّل فرحاً. كنْتُ عيوناً للأعمى، وأقداماً للأعرج، وكنت أباً للمساكين، أتقصّى دعوى من لم أعرفه، هشَّمْت أنياب الظالم، ومن بين أسنانه نزعتُ الفريسة...".

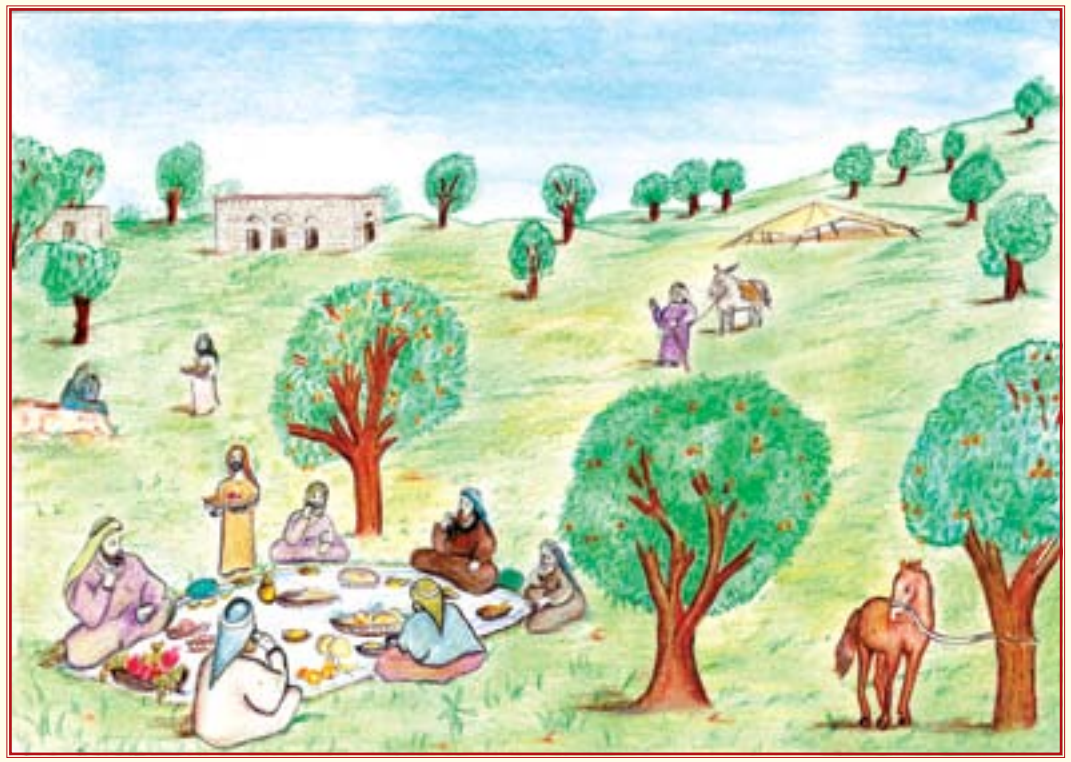

وما ذكرنا هذه الآيات إلا لنؤكِّد على عدلِه سلام الله عليه ورِفْقِه برعيَّتِه، ومحبّته لها.

مع البلاء:

جعل الله هذه الدّنيا دار ممرّ لا دار مستقرٍّ، وجعل حلوها ممزوجاً بمرّها، وجعلها سبحانه وتعالى دار اختبار وامتحان، ولهذا فقد اقتضت مشيئة العزيز الحكيم ابتلاء النبي أيوب بشتى البلاءات: أصابه المرض في جسده، وسلب منه الأولاد، وتهدّم العمران. وما كان له عليه السلام من ردّة فعل إزاءَ ذلك إلاّ قوله: "الربُّ أعطى والربُّ أخذَ". وَقَفَ عليه السلام

موقف الراضي بأحكام القضا، وأثبتَ ان المحبة المخلصةَ لله تعالى تكون لذاته المقدَّسة لا لعطاياه، وحرص عليه السلام ألاّ يكون عابداً للمُمْتَلَكات الماديّة او يكون اسيراً لها، بل أن يعبدَ الله وحده، موقِناً بأنَّ الحياة لم تُمنح لمجرّد الرضاء الشخصي، ولكنها مُنحت لتمجيد الله وتوحيده، ولقيمة الحياة ومعناها التي لا يمكن أن يسلبها أحد منّا ألا وهي محبة الله لنا ومحبّتنا لله. هذه المحبة التي لا تظهر فقط في صور التنعُّم والعطاء، بل ايضاً في صور المصائب والمصاعب والبلاء. فكلتا الحالتين ترجمان لمحبة الحبيب. كيف لا؟! وفي البلاء التصفية للنفس والنقاء والتقرُّب من الله والعلاء. كما رُوي عن رسول الله ﷺ قوله: "من يُرِدِ الله به خيراً يُصب منه". وكلّ على حسب منزلته ووسع طاقته واحتماله؛ لذلك نرى أنَّ أشدَّ الناس بلاءً الأنبياء، ثمَّ الأولياء، ثمَّ الصالحون، ثمَّ الأمثل فالأمثل. وقد جاء على لسان النبيّ عليه الصلاة والسّلام قوله: "يُبتلى الرّجلُ على حسب دينه فإن كان في دينه صلابة زِيْدَ في بلائه".

وأمّا محبّتنا لله فتظهر في تلقّي البلاء بالرّضا والتسليم والوقوف عند إرادة الحبيب. وهذا ما يبدو واضحاً جليّاً في صبر النبي أيوب (ع) الذي عمّه البلاء في كلّ شيء حتّى في جسده الطّاهر الذي لم يبقَ منه عضوٌ سليم سوى قلب شاكر، ولسان ذاكر، فلم ييأس، ولم يضجر، ولم يضعف. بل عاش في كل هذا إيمان الصابر. كان صادقاً في محبته لله فأحبَّ ما أحبَّ الله له وقدَّر عليه. صبر على عظيم بلائه صبراً جميلاً فوقف مع البلاء بحُسن الأدب، وامتثل لمعاني الآية الكريمة: ﴿واصبر وما صبرك

إلا بالله﴾ (النحل/ ١٢٧). كان على ثقة من أن الله تعالى لن يأمره بأمر إلا ويعطيه القوّة على امتثاله؛ فوقف على قدم العبودية الحقّة، وصبر على أوجاعه وآلامه من غير إظهار شكوى لأحد من المخلوقين، بل ثبت مع خالقه، وتلقّى بلاءه بالترحاب واعتصم بحبل عنايته، ورضي بقضائه ومشيئته، واستأنس بذكره وتسبيحه في ليله ونهاره.

تهمة الأصدقاء:

طال مرضه عليه السلام حتى استوحش منه الأنيس وعافه الجليس، وقلاه الأهل والأصحاب، ورموه بأشنع التهم، وأقبح العتاب. وممّا جاء في

بعض الحوارات بين نبيِّنا أيوب (ع) وبين أصحابه، والتي يُستدلّ منها على قوّة إيمانه سلام الله عليه، وثباته على عقيدته، وقوة عزمه، وصبره، واحتماله، ووسع آدابه: حديث أليفاز لأيوب (ع):

"هل هلك احد وهو بريء؟ لو كنت في مكانك لاتّجهتُ إلى الله وعرضتُ أمري عليه وهو صانع عجائب لا تُفْحَص، وعظائم لا تُحْصَى. طوبى للرّجل الذي يقوّمه الله، فلا ترفض تأديب القدير".

فكان أليفاز مقتنعاً بأنَّ البلاء والآلام التي حلّت بالنبي أيوب (ع) هي نتيجة مباشرة للخطيئة، ولو أنَّ أيوب يعترف بخطيئته، لانتهت آلامه. وكان يرى أنَّ الألم إنّما هو عقاب الله الذي يجب تقبُّله لكي يعود الإنسان طاهراً إلى ربّه، ولهذا كان ينصح أيوب (ع) بالتوبة، ويقول له: "انّ تأديب الله بسبب خطيئتك هو بركة". ولكن هذا القول لا يصحّ أن يقال في أيوب(ع) لأن الله تعالى أثنى عليه بقوله: "هل راقبت عبدي أيوب، فإنّه لا نظير له في الارض، فهو رجل، كامل، صالح يتّقي الله، ويحيد عن الشر". وما كانت نصيحة أليفاز لأيوب قائمة إلا على افتراضات خاطئة لا تنطبق على نبيّ من أنبياء الله، فيجب على الناصح فهم حقيقة المنصوح، وتأمُّل الحكمة ممّا يعيشه من أوضاع قبل تقديم النصيحة. لم ينتبه أليفاز إلى ان ابتلاء الله لنبيّه ما كان إلا رفعة في درجته، وتقريباً له. وصدق الحديث الشّريف:

"أشدّ الناس بلاء الأنبياء، ثمَّ الأولياء ثمَّ الصالحون، ثمَّ الأمثل فالأمثل، يُبتلى الرّجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زِيد في بلائه".

فيظهر لنا أنَّ البلاء لا يدل بالضرورة على الشقاء، لأنَّ الدّنيا ليست دار جزاء، بل هي دار امتحان، ومزرعة للآخرة. وإنَّ عاقبة الصبر هي توفية الأجر، ومضاعفة البِرّ. وقد قال الله تعالى عقب قصة النبي أيوب (ع): ﴿وذكرى للعابدين﴾ (الأنبياء/٨٤). ليتذكّروا ويعلموا أنَّ الله يبتلي محبّيه امتحاناً منه لهم، وتهذيباً لنفوسهم، ثمَّ يُؤتيهم أجرهم، ولا يضيع أجر المحسنين.

وقد ردَّ النبي أيوب (ع) على حديث صديقه أليفاز فقال:

"الإنسان المكروب يحتاج إلى وفاء أصدقائه. قد غدر بي إخواني كسيل انقطع ماؤه... أبصرتُم بليَّتي ففزعتم، هل طلبتُ منكم شيئاً، او سألتكم أن ترشُوا من مالكم من أجلي؟ علِّموني فأسكت وأفهِموني ما ضللتُ فيه. على ماذا يبرهن توبيخكم؟ أتتم تلقون القرعة حتى على اليتيم وتساومون على الصديق. أليست حياة الإنسان جهاداً شاقّاً على الأرض وأيامي كأيام الأجير؟".

فيُسْتوحى من كلام أيوب العذب الزّلال الدّالّ على الرفعة والكمال: توجّعه وتألّمه من تهمة صديقه أليفاز له، خصوصاً أنه من أقرب معارفه وأصدقائه إليه؛ فأشدُّ البلاء شماتة الأعداء وتهمة الأصدقاء. إستعظم عليه السلام كلام صديقه الذي عرفه معرفة قوية، وعاشره العشرة الطويلة. كيف أنّه بعد هذا يقدّم له هذه النصائح والإنتقادات غير المبنيّة على الحقائق. وكيف أنّه لم يتعاطف مع حالته ولم يُظهِر الثّقة به وبديانته. وعلاوة على ذلك فأيوب (ع) يوجّه في كلامه هذا رسالة لكل صديق، وينصحه أن يحيط بستان صداقته بسياج المحبة والوفاء والرّحمة كي يتولّد حسن الظّن ولا يتأثر بريح الحقد والكراهية والحسد الذي يولّد سوء الظّن، ويجعله حاجزاً مانعاً من مواصلة الطريق بين الصديقين الحميمين، ولا يكترث للألسن المشكِّكة المحمَّلة بالأخبار المزيَّفة غير الموثوق بها وأن لا يكدّر صفو صديقه بسوء ظنّه، بل يحمله على جناح الرأفة والرحمة والشفقة. وهو عليه السلام مع ما سمعه من أصدقائه، بقي شريفاً في مواقفه، عفيفاً في ذاته، مخلصاً في مودّته في وقت كان بأمسّ الحاجة إلى الصديق، وهل

الصديق إلا في وقت الضيق؟! ونراه في قوله: "هل طلبتُ منكم شيئاً... من أجلي؟" متّكلاً حقّ التوكّل على الله تعالى متجرّداً في خدمته، موقناً بأن النفع والضّرّ بيده، مبيّناً لأصدقائه أنَّ رسالته وكلامه ونصيحته هي من أجْلهم، ومن أجل إصلاحهم، شأنه شأن الأنبياء الطاهرين المخلصين الذين لا يبتغون إلا وجه الله العزيز الحكيم. وأتت نصيحته سلام الله عليه هذه بألطف العبارات: "علِّموني فأسكتُ، وأفهموني ما ضللت فيه". فيا له من مُؤدِّب ناصح تنازل عن ذاته، بل غابت ذاته في الذات الوحدانية الصمدانية، وبرزت سرائر النبوَّة بحجج عقلية. وختم نصحه لأصدقائه وعتابه لهم بأنَّ الحياة في الدّنيا مشقّات وجهاد، وفيها تُختبر وتُمتحن العباد، فسبحان من أيّده وقوّاه، وعصمه وأعلاه.

ولم يكفّ أصدقاء أيوب (ع) عن الشماتة به، واتهامه بالرياء، وأنّ آلامه على زعمهم سببها الآثام والزّلّات، وأنَّ أيوب (ع) طال تألّمه لأنّه لم يُرِدِ الإقرار بذنبه، وأنَّ خطيئته تستحق آلاماً أكثر مما يعانيه، ولم تنفعهم نصائح أيوب الطاهرة إلا كنفع الأمطار على الصخور الجامدة. وهذه بعض نصائحهم وأقوالهم تُفصِح عن مكنون ضمائرهم:

"إرجع إلى الله واعترف بخطاياك... إلى متى تظل تلغو بهذه الأقوال... انبذ إثمك... أيحرّف الله القضاء، أم يعكس القدير ما هو حق؟ فإن أسرعت وطلبت وجه الله وتضرّعت إلى القدير، وإن كنت نقياً صالحاً، فإنّه حتماً يلتفت إليك ويكافئك بمسكن برّ، وإن تكن أُولاك متواضعة، فإنَّ آخرتك تكون عظيمة جداً".

فكان ردّ أيوب (ع):

"لقد أصبحت مثار هزء لأصدقائي، وأصبحت مثار سخرية، يضمر المطمئن شرّاً للبائس الذي تزلّ به القدم. الحكمة والقوة لله، وله المشورة والفهم، وما يهدمه الله لا يُبنى، والمرء الذي يأسره الله لا يحرّره إنسان. له العزّة والحكمة".

إنّه لكلام جليل يدلّ على إخلاص أيوب في محبّته وعبوديّته لله تعالى، وتبرئته من الحول والقوة وتسليم مقاليد أموره إليه، حيث العبودية الصادقة: ترك الإختيار فيما يبدو من الأقدار، وأن تكون عبداً لله في كل حال كما هو ربّك في كل حال. وقد أثمرت هذه العبودية الصادقة من نبيّنا أيوب (ع) مقام الرضا وهو سكون القلب لمجاري الأحكام أي موافقته الكُلّيّة لما رضي الله له واختار. والرّضا باب الله الأعظم فمن أُكرِم به فقد لُقِيَ بالترحاب الأوفى وأُكرم بالتقريب الأعلى. وهو قوله عزَّ وجل في كتابه العزيز: ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ (المائدة /١١٩). كان عليه السلام صريحاً في مواقفه مع أصدقائه، شجاعاً شجاعة المؤدِّب النّاصح الرّفيق الحازم، فقال لهم بعد أن ازدادوا قساوة وغلاظة تجاهه:

"في وسعي أن أتكلم مثلكم لو كنتم مكاني، وألقي عليكم أقوال ملامة، وأهزُّ برأسي في وجوهكم. بل كنت أشجّعكم بنصائحي، وأشد بتعزياتي".

وكان يقول لهم:

"يا ليتكم عاملتموني كما كنت لأعاملكم، يا ليتكم عزّيتموني في مصابي كما كنت لأعزّيكم. أين محبّتكم لي تجاه محبّتي لكم. أين رفقكم بي تجاه رفقي بكم. أين حسن ظنّكم بي تجاه حسن ظنّي بكم؟!!."

وبهذا يتبيّن أن البلاء لا يجب أن يكون سبباً للإنتقاد والتعيير واللوم والتّسرّع بالأحكام، بل يجب على المعزّي أن يضع نفسه مكان المصاب فيعذره ويشفق عليه، ويقدّم له العون والتشجيع.

نعم، إنَّ الأفضلَ هو التعزيةُ والمواساةُ وليس المقاضاة. وقد أعطانا أيوب (ع) بكلماته هذه درساً في الأخوّة الصادقة وأنّها لا تصحّ أبداً إلا بحفظ الحرمة، حرمة الصديق لصديقه بغيابه وحضوره، وذلك بنصحه وتشجيعه والرّفق به وبالتواضع له، والاستنصاف من نفسه معه، وخدمته والتخفيف عنه بقدر الإمكان، وشهود الصفا فيه، فلا ينتقص من حرمته ولو رأى ما يوجب النقص في الظاهر، فالمؤمن يلتمس المعاذير، من عذر واحد إلى سبعين، لأنّ المؤمن من أهل الوفا والصفا، فلا يشهد إلا الصفا، وأهل النقص والخنى لا يشهدون إلا النقص والخنى. وممّا روي عن رسول الله ﷺ: خصلتان ليس فوقهما شيء من الخير: "حسن الظّن بالله، وحسن الظّن بعباد الله"، وخصلتان ليس فوقهما شيء من الشّر: "سوء الظّن بالله، وسوء الظن بعباد الله"، وإننا نرى في ردّ أيوب (ع) على تهم أصدقائه له تعبيراً عن أسمى معاني الصبر ألا وهو الصبر على ما يكرهه من كلامهم والذي قابله سلام الله عليه بالأناة والحلم والرّفق، وترك الغضب، وكذلك نرى فيه تعبيراً عن الصبر على المصائب

بالرّضى والإحتساب وبالإحتمال لأذيّة الأصدقاء وترك المكافأة على أقوالهم ونواياهم بالمثل، بل قابل ذلك بزيادة النّصح، والإرشاد لهم، لعلّهم يهتدون. وقد أعانه في الثبات على الصبر كمال المعرفة بالله تعالى وما في الصبر من الخير والنّفع واللّذة والكمال. وإن الصبر صفة من صفات الله عزّ وجل. فأحبّ سلام الله عليه أن يتخلّق بأخلاق الله عز وجل، وقد أوحى الله سبحانه إلى داود (ع): "تخلّق بأخلاقي فإنّ من أخلاقي أنّي أنا الصبور". وهكذا أشرقت أنوار النبوّة في أيوب (ع) فكان العارف بالله، والصابر على بلائه، والراضي بقضائه، والناصح لعباده، والرفيق بهم، والمُشفِق عليهم، فسبحان من خصّه بأنوار النبوّة المباركة، وأعاننا على الاقتباس من هذه الأنوار الطاهرة أدباً وعلماً ومسلكاً ومعرفةً.

أيوب (ع) وزوجته رحمة:

كان المرض قد اشتدّ على أيوب (ع) وطال، حتى استوحش منه الأنيس، وعافه الجليس، وانقطع عنه النّاس،كما ذكرنا سابقاً، ولم يلتمس الشفقة من أحد، إلا زوجته الصالحة "رحمة" التي كانت تعرف أفضاله، وترعى له حقّه، وتهتم به، وتعينه على قضاء حاجته برفق ومحبة وإخلاص، وضَعُف حالها وقل مالها، فاضطرت لأن تخدم الناس بالأُجرة لتُطعمه وتقوم بأوده، وهي صابرة شاكرة، مع ما حل بها من موت الأولاد، وابتلاء زوجها، وضيق ذات اليد، وخدمة الناس بعد العيش الرغيد والنعم الكثيرة. وكان نبيّنا أيوب (ع) مدركاً لذلك عارفاً فضلَ زوجته وصبرها وتحمّلها الصعاب من أجله، ومرارة عيشها. ولم يزده هذا كلّه عليه السلام

إلا صبراً واحتساباً وحمداً وشكراً. لكنّ النّاس منازل ودرجات وتفاوت في القوّات، فصبر الأنبياء غير صبر الأولياء، وصبر الأولياء غير صبر الصالحين، وصبر الصالحين غير صبر عموم النّاس أجمعين. فليس عجباً أن يكون هناك تفاوت بينه وبينها في كل شيء، فلم يكن صبرها صبره، بل كانت تتذكر الماضي وتتحسّر عليه، وتشتاق إلى الفرج وتسعى اليه. كانت تشعر بثقل المحنة وترغب في الخروج من الشدّة،... وهذا ممّا أرهقها، وأضعف حالها، وأدخلها في حال من الحزن والكآبة.

جاء في بعض الروايات أنّها كانت تتفكّر في الماضي وتتحسّر عليه فيجري على لسانها بعض كلام، قالت يوماً:

"ذهب المال والولد وبقي الضّرّ في الجسد".

فقال لها أيوب (ع):

"اسكتي يا رحمة فإنَّ الله ابتلى النّبيّين من قبلي، فصبّرهم. وإنَّ الله وَعَدَ الصابرين أجراً عظيماً".

ثمَّ سجد (ع) لله ودعا. وكان يغلبها الحزن في بعض الأوقات فتبكي فيقول لها عليه السلام:

"أنت من بنات الأنبياء، وتعلمين أنّي نبيّ، وإنَّ لي أسوةً بالأنبياء والمرسلين، وآبائك إبراهيم وإسحق ويعقوب ويوسف عليهم السلام... ابتُلوا فصبروا".

ومرّة نقلت النّبي أيوب (ع) إلى عريش وفرشت أرضه بالرّماد، ثمَّ قالت له:

"يا أيوب. قم إلى فراشك الرماد بعد الفراش الممهّد، ووسادك الحجر بعد المخدّ المنضّد"

فقال لها:

"ألم أنهاكِ ان تذكري لي شيئاً من هذا؟! ... لا تذكري حبّ الدّنيا فإنّه زائل".

يستوحى من هذا الحوار بين أيوب (ع) وبين زوجته "رحمة" رضوان الله عليها: رفق الأنبياء، وسعة حلمهم، وصدق نصائحهم حتى ولو كانوا في أشد البلاء والمحن. وكذلك نستوحي أنّ كلام "رحمة" رضي الله عنها لا ينافي الصبر، ولا يدخل في باب الجزع والاعتراض على حكم الله، بل هو إخبارٌ عن حالها، وأنّها من بني البشر تضعف عن تحمّل البلاء وخاصة بعد أن تسمع كلام الأصحاب وعتابهم، وشماتة الأعداء والحسّاد. ومع هذا كله هناك بَوْنٌ شاسعٌ بين درجة الأنبياء ودرجة الأولياء في الصبر والثبات على أوامر الله وحكمه وقضائه. ونبينا أيوب (ع) لم يستغن مع علو منزلته ورفعة مقامه عند الله تعالى أن ينادي ربّه ويقول: ﴿ إِنِّي مسَّني الضرّ ﴾ (الأنبياء/٨٣). ودعاؤه هذا هو عرض لحالته على الله تبارك وتعالى، وإخباره بالوضع الذي بلغه، صابراً على ما يكون من الله تبارك وتعالى فيه.

ونعود إلى سرد أحداث هذه القصة المباركة. فبعد الحوار الذي جرى بين أيوب (ع) وزوجته "رحمة" والذي ذكرناه، زحف عليه السلام وألقى نفسه على الرماد وهو يسبِّح الله تعالى، وذكّرته زوجته يوماً بما كان عليه من تنعّم ورخاء، وقالت له: "يا أيوب لو دعوت ربّك لفرّجَ عنك.. كفانا بلاءً ومصاباً". فقال لها عليه السلام وهو غاضب غضب الغيور على دينه والامين على اختيار سيِّده: "عشت سبعين سنة صحيحاً، فهو قليل لله أن أصبر له سبع سنين". وهنا يظهر التفاوت بالصبر بين الأنبياء وقوة التحمّل عندهم وبين الاولياء كما ذكرنا.

انَّ أحداً لن يستغرب ما صدر عن هذه المرأة الخَيّرة من اقوال و افعال عندما يعلم شدّة معاناتها وكثرة مسؤولياتها ومعايشتها لكل المحن الكبرى وشدائد البلوى التي عاشها نبي الله أيوب (ع) وما عانته هي ايضاً مباشرةً من الناس.

جاء في بعض الروايات انّه لمّا توالت المصائب على النّبي ايّوب (ع) أساء البعض الظن به وأخذوا يحرّضون أهل القرية عليه وعلى امرأته رحمة، ممّا دفعهم الى منعها من الدخول اليهم وطرده عليه السلام من بينهم، وقرّروا إفلات كلاب الصيد عليه فاسرعت رحمة وجلة خائفة وأخبرته فطمأنها(ع) وقال لها "يا رحمة ان الله تبارك وتعالى لا يسلّط عليّ الكلاب وأنا نبيّه"

وقيل انها انتقلت به الى مكان آخر قرب قرية أخرى، ولما علمت نساء القرية عن أحوالها أشفقْنَ عليها و قرّرْنَ مساعدتها، وقلْنَ لها:

"لا تدخلي بيوتنا و نحن نواسيكِ في طعامنا"

وهذا ممّا خفّف من معاناتها وجعلها تتفرّغ لخدمة نبيّ الله في تلك البرّيّة الموحشة. ولما علم أيوب (ع) بهذا قال لها:

"جزاكِ الله خيراً يا رحمة .. و الحمد لله"

فقالت:"الحمد لله الذي لا ينسى مَنْ ذَكَرَه، ولا يَخِيبُ من شَكَرَه، ولا يَضِيْعُ من توكّل عليه. له الحكم واليه يرجع الامر، وهو على كلِّ شيئ قدير".

الفرج بعد العناء:

وهكذا نرى لطف المولى الذي لا يفارق عبيده، ونرى صدق وعده انَّ مع العُسْر يسراً وما على العبد الا ان يتوكل عليه ويلجأ في جميع أموره اليه، ونرى ان العبد وان كان صالحاً فهو ما بين قوة و ضعف. قيل انّه عتب يوماً على امرأتة رحمة عتباً شديداً حتى انه طلب منها ان تبتعد عنه وتتركه ورفع رأسه إلى السماء ودعا ربه قائلاً: ﴿ إني مسَّني الضُّرُّ وأنت أرحمُ الرّاحمين ﴾ (الأنبياء/٨٣). بقي عليه السلام مؤدَّباً في دعائه، مستحيياً أن يطلب من ربّه ما قد يكون خلاف إرادته واختياره، فلم يقل في دعائه : "ارحمني". بل قال: "وأنت أرحم الراحمين". ولم يقل: "إني

مسَّني الضّرّ" على وجه الإعتراض على حكم الحكيم أو على وجه تعريف السّميع العليم، بل كان على وجه إظهار عجز العبودية، والإلتجاء إلى عون الربوبية، عند اشتداد المصائب والبلايا، إذ لا صبر إلا بالله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم. وهذا لم ينف عنه عليه السلام صفة الصبر بل أبقاها الله تعالى عليه وشهد له بها بقوله: ﴿ إنَّا وجدناه صابراً ﴾ (ص/٤٤). كان دعاؤه من الأدعية التي هي الأكثر تأدباً مع الله تعالى. فاستجاب الله لدعائه. وجاء الوحي بأن يضرب الارض برجليه، ففعل، فتفجّرت عين ماء فشرب واغتسل، وزال عنه البلاء والعناء، وعاد إلى حال الصحّة والرخاء. أما زوجته المخلصة التي لم تكن تقصد له حق الاساءة أو الأذية والتي كان قلبها مليئاً بالرحمة والعطف والشفقة، فإنها بعد رحيلها لم تكن تشعر بالراحة والاطمئنان، ولم تعتبر أنَّ في هذا الرحيل فرجها وخلاصها، بل ظلَّ فكرها مشغولاً به، وكيف سيتدبّر أمره بدونها، وصارت تقول في نفسها: "أدَعُهُ يموت جوعاً أو يضيع فتأكله السباع؟؟ لا، لأرجِعنَّ إليه". ولهذا سرعان ما صمّمت على العودة إلى زوجها المحبّ النصوح على نيّة تطييب خاطره وطلب عفوه، والسماح لها بملازمته والسهر على خدمته والإعتناء به كسابق عهدها. وهذا ما يؤكّد الذي ذكرناه آنفاً عنها رضوان الله عليها من أنَّ كلامها وتصرفاتها لم تكن على سبيل الاعتراض على حكم الحكيم وقضائه، ولا رغبةً في الدخول في المحرَّمات، بل كانت غيرةً على زوجها، ومحبةً له، وإشفاقاً عليه، وإخباراً عن حالها لله تعالى، ولزوجها النبي الطاهر الصابر. ولكن

للأنبياء رسالةً تسمو فوق مسالك الناس أجمعين، لا بد من إيصالها لتعمّ الرحمة، وتكمل النعمة، وتثبت الحجة، وتتّضح المحجة.

ولمّا وصلت إلى مكانه لم تجده ورأت رجلاً مهيباً بكامل عافيته ونضارته، فلم تعرفه حتى عرّفها بنفسه وأنّه زوجها المبتلَى الذي مَنَّ عليه الله تعالى القادر الكريم بالعودة إلى حال الصحة والعافية. فبكت وحمدت الله تعالى على جليل نعمه وجميل صنعه، وطلبت العفو والمغفرة على ما بدر منها.

تلقّاها عليه السلام بالرحمة والرأفة والعطف والشفقة. كان عاذراً إيّاها مقدّرا حِملها الثقيل لبلائه وبلائها، ولكلٍّ طاقَتُهُ ووُسْعُ احتماله وكان في هذا الفرج عنوان انتهاء الاختبار والامتحان دنيا وديناً وابتداء التفكّر والاعتبار بقدرة وحكمة رب العالمين، وبهذا الفرج عادت الاحوال الى افضل ممّا كانت عليه وحلّت النعمة و عمّت البركة.

وقيل إن الله تعالى أكرمها أيضاً بعودتها إلى صحتها ونضارتها، والتعويض لها ولزوجها نبيّ الله أيوب (ع) عن كل ما كانا قد فقداه وخسراه من صحة ومال وولد وأملاك وجاه.

خاتمة:

نجد أنفسنا بعد هذه التأملات أمام شخصية كريمة عاشت التحدي للمحن والبلايا في كل أشكالها وصورها، وما وهنت عزيمتها وما ضعفت قواها، قوّة العقيدة والايمان وعزيمة الثبات على حال الالتزام، التزام العبودية بالأقوال والأفعال والأحوال.

نجد أنفسنا أمام شخصية اختبرها الله تعالى اختبارات قاسية شديدة فنجحت وفازت فوزاً عظيماً جليلاً. فهنيئاً لها هذا الفوز، وهنيئا لها شهادة

الله تعالى لها به في قوله: "إنّا وجدناه صابراً نعم العبد إنّه أوّاب". فيا لها من شهادة بالصبر والعبودية الحقّة والرجوع إلى الله في الرخاء والشدّة بالرضا والتسليم والتسبيح والتمجيد. وكل هذا يدل على مدى اخلاصه وصدق علاقته بربّه، وكمال معرفته به، والتّفاني في محبته وتوحيده ....

كانت عقيدته حاضرة معه في كل صغيرة وكبيرة وكل شدّة ماديّة كانت ام معنويّة.. من موت الولد وهدم الدار وحرق الزرع والمواشي وخسارة الأملاك وذهاب الجاه.. في تنكّر الناس لفضله وموقعه، في شماتة اعدائه وتهمة اصدقائه وتنصّل اقربائه.

لم يضعف صبره لانه كان قوياً في ايمانه ويقينه بتقادير الله الجارية واحكامه النافذة .. وبقيت نفسه صافية نقية لا تحمل ضغينة على احد ولا كراهية.. وبقي عنوان هداية للناس ولزوجته المحبّة المخلصة.

وعندما انتهى الأجل جاءه الفرج على عجل، ومن حيث لا يحتسب وبأيسر الأسباب، فسبحان مسبّب الأسباب الذي لا ينسى من فضله أحداً، أعاننا الله وإيّاكم على مرضاته والصبر على بلائه، والثبات على طاعته، والاقتداء بأخلاق هذا النبي الكريم في صبره واحتماله .... إنّه ولي ذلك والقادر عليه.

فهرست

تمهيد .... (٣)

قبل البلاء .... (٤)

مع البلاء .... (٥)

تهمة الأصدقاء .... (٧)

أيوب (ع) وزوجته رحمة .... (١٤)

الفرج بعد العناء .... (١٨)

خاتمة .... (٢١)

مؤسسة ناس للطباعة
Aramoun,Tel/Fax : 05/410585
03 / 81 71 22 - 03 / 94 60 94